المبحث الخامس
الغربة والحنين

شعر الغربة والحنين

ومن الموضوعات الجديدة التي برزت في الشعر الأندلسي على نحو جديد وبانت شخصيتها على صورة مختلفة ، وذلك لتأثير البيئة الأندلسية من نواحيها المختلفة سياسية واجتماعية وطبيعية ، فقد تألق هذا الموضوع على نحو فريد في القرن الخامس الهجري ، وان كنا نجد صورة مصغرة له قبل هذا العصر .

لقد أشار عدد من الباحثين الى جدة هذا الموضوع[١] ويتصل هذان الموضوعان بجذورهما العريقة الموغلة في التأريخ ذلك لأنهما من الغرائز الفطرية في الانسان ، يرتبطان بالعربي منذ أقدم العصور حتى تواترت في ذلك الأمثال واتصلت الاخبار وقد ورد في الأمثال قولهم : « ميلك الى مولدك من كرم محتدك » وقولهم : « لا تجفُ أرضاً فيه قوابلك ولا تنس بلداً فيه قبائلك » وقالت الحكماء : « حنين الرجل الى وطنه من علامات رشده »[٢] وقد حكى ذلك القرآن الكريم اذ رأى الجاحظ أن مما يؤكد حب الاوطان قوله تعالى : « ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم أو اخرجوا من دياركم ، ما فعلوه الا قليلٌ منهم »[٣] فسوّى بين قتل انفسهم وبين الخروج من ديارهم وقال تعالى : « وما لنا الا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وابنائنا » .

وجاء في الحديث الشريف : « حب الوطن من الايمان »[٤] وقد قيل لأعرابي أتشتاق الى وطنك ؟ قال : كيف لا اشتاق الى رملة كنت جنين ركامها ورضيع غمامها .[٥] ومما قيل : « لولا حب الاوطان لخربت البلدان »[٦] وكانت العرب اذا

---

(١) ابن بسام وكتابه الذخيرة ١١٨ .
(٢) تمام المتون ٣٣٠ ـ ٣٣٢ .
(٣) الحنين الى الاوطان ٩ .
(٤) تمام المتون ٣٢٩ .
(٥) الوطن في الأدب العربي ٤٨ .
(٦) الحنين الى الاوطان ٩ .

غزت وسافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعفراً تستنشقه عند نزلة أو زكام أو صداع »[١] وقال ابراهيم بن ادهم (رض) . ما قاسيت فيما تركت من الدنيا اشد من مفارقة الأوطان .[٢] وقد ضربوا الأمثال بالإبل في حنينها فقالوا : (لا تدع العرب الشعر حتى تدع الأبل الحنين) وقالوا : أكرم الأبل أشدها حنيناً الى اوطانها »[٣] .

استخدم المعجم العربي الفاظاً ذات دلالات متقاربة فقد جاء في المحيط الغرب والغربة : النوى والبعد ، وجاء في اللسان غرب أي بعد والتغرب البعد والغربة والغرب النزوح عن الوطن والاغتراب ، وتغرب واغترب تغرباً واغترابا بمعنى واحد .[٤] وذلك لأن صيغة (افتعل) تدل ضمن ما تدل من معاني على المطاوعة كما تدل على التصرف ، اي الاجتهاد في تحصيل الفعل .[٥]

وللمعاجم الحديثة تفسيرات لهذا المفهوم ، نفسية ، واجتماعية فقد فسر بأنه عاطفة تستولي على المرء فيعيش في قلق وكآبة لشعوره بالبعد عما يهوى أو يرغب فيه .[٦]

وقد تنبه القدماء الى هذه الظاهرة فألفوا فيها وصنفوا كتباً لعل أقدمها رسالة ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) الموسومة : الحنين الى الاوطان ، وقد افدنا ـ عما قريب ـ من نصوص نثرية كثيرة ، ساقها الجاحظ في كتابه ، وقد تضمن فضلاً عن ذلك مقطعات شعرية كثيرة في هذا المجال .[٧]

---

(١) نفسه ١٢ .

(٢) المنازل والديار ٢١٩ .

(٣) الحنين الى الاوطان ص ٩ .

(٤) القاموس المحيط مادة « غرب » لسان العرب مادة « غرب » .

(٥) عمدة الصرف ص ٢٥ .

(٦) المعجم الأدبي ١٨٦ وفي معجم علم االاجتماع ص ٢٠ ان الاغتراب هو الحالة السيكو اجتماعية التي تسيطر على الفرد سيطرة تامة تجعله غريباً ، وبعيداً عن واقعه الاجتماعي ، ويجد المؤلف صعوبة في وضع تحليل شامل وعام لهذا الاصطلاح لصعوبة وضع أسس فكرية للبحث الاجتماعي ، لأن هذا الاصطلاح يدخل في عدة موضوعات انسانية كعلم الاجتماع والفلسفة السياسية والاجتماعية والتحليل النفساني والفلسفة الوجودية ، ويتصل هذا الاصطلاح بظواهر التعصب العنصري ، المرض العقلي ، الوعي الطبقي ، الصراع الصناعي والصراع السياسي ...

(٧) الرسالة طبعت بتصحيح الشيخ طاهر الجزائري (ط ١ المنار مصر ١٣٢٣ هـ) وهي تقع في ثمانية وثلاثين صفحة وتضمنت اقوالاً وحكماً وقصصاً في موضوعها كما تضمنت على حوالي ثلاثين نصاً شعرياً بين قطعة وقصيدة .

ومن هذه الرسائل كتاب ابي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) وقد سماه أدب الغرباء وكتاب اسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) المنازل والديار وهو اوسع هذه الكتب .

ولم يحتفل الباحثون لنتاج الاندلس من هذا الأدب على غزارته وتنوعه وكثرة أدبائه لكننا لا نكاد نقلب النظر في مصدر تأريخي أو مجموع أدبي أو ديوان شعري في عصور الأندلس الطويلة ومدنها وأصقاعها المترامية الأطراف حتى نقع على شواهد وأمثلة كثيرة في هذا الباب . حتى جاء السيد أحمد حاجم محمد فأفرد في الموضوع دراسته . وجعلها في خمسة فصول . الغربة الوطنية . والغربة النفسية . والحنين الى الوطن . والحنين الى الأحبة والأهل والأخوان ثم الطبيعة في شعر الغربة والحنين وهي في حوالي مئتين وخمسين صفحة .[١]

وليس من سبيل للاحاطة في مثل دراستنا بهذا الأدب أو استقصاء ضروبه وانماطه . ولكن النظرة المتأنية تسلمنا الى الوقوف على دواعي الغربة والحنين التي كانت تهيج وتحرك مكامن الصبوة ولواعجها .

ويتجلى الشعور بالغربة والحنين الى الوطن في جملة اسباب منها . الرحلة في طلب العلم . على نحو ما كتب به ابن الفرضي (ت ٤٠٣ هـ) وهو في طريقه الى المشرق وكان قد رحل وتغرب حيث يقول :[٢]

مضت لي شهور منذ غبتم ثلاثة ... وما خلتني ابقى ـ اذا غبتم ـ شهرا
سأستعتب الدهر المفرق بيننا ... وهل نافعي ان صرت استعتب الدهرا
وتالله ما فارقتكم عن قلى لكم ... ولكنها الاقدار تجرى كما تجرى

ومنها الرحلة عن الوطن بسبب الحروب والفتن الداخلية التي حلت بمدن الأندلس وابرز هذه الفتن التي انعكست اثارها في الشعر الأندلسي . الفتنة القرطبية على نحو ما تعكسه ابيات ابي بكر محمد بن قاسم (اشكهباط) الذي نشأ بقرطبة وساد فيها ثم اضطرته الحال الى مغادرتها والتجوال في مدن الأندلس ثم في بلاد المشرق فصور غربته ادق تصوير ونقلت ابياته معاناته نقلاً دقيقاً حيث يقول بعد أن اجتاز بحلب :[٣]

---

(١) وهي بعنوان الغربة والحنين في الشعر العربي الأندلسي . رسالة ماجستير ـ جامعة بغداد ١٩٨٢ .

(٢) الجذوة ٢٥٦ ، الذخيرة ١ / ٢ / ١٣٠ .

(٣) المغرب ٢ / ٢١ ، النفح ٢ / ٩٥ .

أين أقصى الغرب من أرض حلب ... أملٌ في الغرب موصول التعبْ
حن من شوق إلى أوطانه ... من جفاه صبره لما اغتربْ
جال في الأرض لجاجاً حائراً ... بين شوقٍ وعناء ونصب

وبعد ان يجري الموازنة غير المتكافئة بين وطنه الذي استودع فيه ذكرياته وبين الأرض التي كتب الله عليه ان يحل فيها ، يلخص محنته فيقول :

يا أحباي اسمعوا بعض الذي ... يتلقاه الطريد المغترب
وليكن زجراً لكم عن غربةٍ ... يرجع الرأس لديها كالذنب
ولئن قاسيت ما قاسيته ... فبما أبصر لحظي من عجب

وتوضح أبيات أخرى الآمه وأحزانه العميقة حين يذكر تغير حاله وطيب مقامه بجوار مجاهد العامري ، بعد تلك الرحلة في بلاد المشرق ،[1]

ولاقيت من دهري وصرف خطوبه ... كما جرت النكباء في معطف الغصن
فلا تسألوني عن فراق جهنم ... ولكن سلوني عن دخولي إلى عدن

ومنها ـ ولعلها اقوى عوامل الغربة والحنين ـ الحروب المستعرة بين المسلمين والاسبان وقد اتقدت جذوتها ، بعد سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) كبرى حواضر الأندلس على نحو ما بسطنا الحديث فيه في حين اتسق بنا المقال في موضوع رثاء المدن والممالك ، وتحكى كتب التراجم صورة لأضطراب العلماء والشعراء في البلاد وضربهم في الآفاق أثر سقوط المدن ومنهم علي بن عبد الرحمن الخزرجي ، الذي برع في الفقه والطب فلما استولى القشتاليون على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ غادرها وتجول في مختلف ربوع الأندلس ونزل بطليوس ثم اشبيلية ثم قرطبة وبها توفي سنة ٤٩٩ ،[2] والشعور بالغربة خطوة تالية لسقوط المدينة ، والشاعر يستشعر هذا المعنى سيان ان غادرها أو أقام فيها لأنه في الحالين مدركه ضيم الأسبان وجورهم وأذاهم ... فحين يبقى تحت سلطانهم نجده يعيش غربة نفسية تتلاشى معها قيم الزمان والمكان .. فأن هو نزح عنها اجتر ذكرياته العريقة منها ..

ففي نكبته بطليطلة يقول ابو المعالي الاشبيلي في حالة من الذهول والاستغراب مما آل اليه حاله :[3]

---

(١) النفح ٢ / ٩٦ .
(٢) الذيل والتكملة ٥ / ١ / ٢٥٠ .
(٣) النفح ٤ / ١١٣ .

انا في الغربة أبكي ... ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجي ... من بلادي بمصيب
عجباً لي ولتركي ... وطناً فيه حبيبي

وفي نكبته ببلنسية يقول ابن خفاجة مثلها . لكنها تأتي قطعاً من كبده ومزعاً من قلبه حيث يبث همومه ولواعجه فتتسق قصيدته في ثلاثة عشر بيتاً ولاهمية القصيدة آثرنا ايراد اكثرها : [1]

بين شقر وملتقى نهريها ... حيث ألقت بنا الأماني عصاها
ويغني المكاء في شاطئيها ... يستخف النُهى فحلّت حباها
عيشة أقبلت يُشهى جناها ... وارفٌ ظلها لذيذ كراها
ثم ولت كأنها لم تكد تلبث ... الاعشّية أو ضحاها
آه من غربة ترقرق بثّا ... آه من رحلة تطول نواها
آه من فرقة لغير تلاقٍ ... آه من دار لايجيب صداها
لست ادري ومدمع المزن رطبٌ ... أبكاها صبابةً أم سقاها

وواضح أن الشاعر في أبياته جمع بين الصوت والصورة الثابتة و الاخرى المتحركة . صوت المكّاء ووارف الظلال . ولذيذ الكرى . وتفاعلهم مع الطبيعة وحركتهم مع غصونها في بطاحها ورباها .. ودموع المزن تبكيها صبابة وربما تسقيها . ولا يملك في آخر ابياته الا أسبال الدموع والاسترسال في البكاء .

فتعالى ياعين نبك عليها من حياة إن كان يغني بكاها
وشباب قد فات إلا تناسيه ... ونفس لم يبق إلا شجاها
ما لعيني تبكى عليها وقلبي ... يتمنى سواده لو فداها

واما لغة ابن خفاجة فقد جاءت ضرباً من السلاسة والرقة . وتتردد في معجمه الفاظ « الغربة » و « الفرقة » كما تتردد الفاظ البكاء في قصيدته بصيغ متعددة . في اربعة مواضع « ابكاها . نبك . بكاها . نبكى » ويعطف عليها لفظتين اخريين « الندب والشجى » . ولم يكتف حتى صعد الزفرات وردد الآهات خمس مرات . واحدة مفردة . واربعاً مجتمعة في بيتين على سبيل « رد العجز على الصدر » . كما يلاحظ اقتباسه من القرآن الكريم اقتباساً مباشراً . وهو ما يتورع عنه شعراء الاندلس

---

(١) ديوانه رقم ٢٠٢ .

في اكثر اقتباساتهم . في قوله تعالى (النازعات ٤٦) « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الاعشية أو ضحاها » .

وابن خفاجة شاعر الطبيعة غير مدافع ولا منازع ـ كما نعته الدكتور الكريم ـ يبدع ما شاء له الابداع ويحلق ما شاء له التحليق في قصيدته المتقدمة آنفاً . حيث جاءت تعج بالعواطف وتضج المشاعر الى موطنه الذي شحط النوى به ، وباعدت محنة دخول الغزاة اليه ، بينهما فاصبحت القصيدة فيضاً من المشاعر التي ـ ازدحمت فيها صور الذكريات في مخيلته . حتى اننا لا نملك الا الاستسلام لآهاته التي جاءت نفثة مصدور ولوعة مفجوع باعز ما يملك . وقد اختار لتحقيق الانسجام والموسيقى في الأبيات ، الهاء روياً وجعل الردف والوصل حرف المد الألف .

وفي ديوانه قصائد أخرى في هذا الإتجاه[١] . ولم يكن وفاء ابي المطرف بن عميرة شاعر بلنسية ـ في عصر الموحدين ـ أقل من وفاء شاعرها ابن خفاجة في عصر الطوائف والمرابطين . واذا كنا قد حرمنا ديوان هذا الشاعر فأن فيما بين ايدينا من اشعاره ما يجلو لنا هذه الصورة فمن ذلك ابيات احتفظ بها الحميري في روضه حيث يخاطب الشاعر جزيرة شقر التي كانت احدى مدن بلنسية والتي اصابها ما اصابها فيقول :[٢]

كفى حزناً نأي عن الأهل بعدما ... نأينا عن الأوطان فهي بلاقع
نوى غربة حتى بمنزل غربة ... لقد صنع البين الذي هو صانع
وكيف بشقر أو بزرقة مائه ... وفيه لشقر أو لزرق شوارع

ويقول في الأخرى :[٣]

وعاد قلبي من شوق أندلس ... عيدُ أسى فته وما فتر
فأين منا منازل عصفت ... ريح عليها من العدا صرصر
ودون شـــقر ودون زرقـــتـــه ... أزرق يحكي قناه أو أشقر

وممن تركت نكبة بلنسية اثارها عليه ابو عيسى بن لبون وكان من جملة اصحاب القادر يحيى بن ذي النون حيث رأس بمربيطر من اعمال بلنسية فلما تغلب السيد الكمبيطور على بلنسية تخلى عنها لأبي مروان بن رزين ثم بعد ذلك ضرب في الأرض لخيبة امله فقال في ذلك[٢] .

---

(١) ديوانه ق ٧٨ وتنظرق ٦٥ و ق ٢٧٦ (٢) الروض المعطار ص ٢٥٠
(٢) نفسه ص . ٢٥
(٣) القلائد ١١٥ ، الحلة السيراء ٢ / ١٦٨ وتنظر الحزيدة ٢ / ٢٧٥ .

ذروني اجب شرق البلاد وغربها لاشفي نفسي او أموت بدائي
فلست ككلب السوء يرضيه مربض وعظم ، ولكني عقاب سماء
وكنت اذا ما بلدةٌ لي تنكرت شددت الى أخرى مطي إبائي
وسرت ولا ألوي على متعذر وصممت لا اصغي الى النصحاء

وقال من قصيدة اخرى[1] :

خليلي ما بالي على صدق عزمتي أرى من زماني ونية او تعذرا
ووالله ما أدري لاي جريمة تجنى ، ولا عن اي ذنب تغيرا
لئن شان تمزيق الزمان لدولتي لقد رد عن جهل كثير وبصرا

فكان من اثر ذلك ان انعطف ابن لبون عن الدنيا واعرض وصار الى الزهد فيها واعتزل الناس وتقترن قصائد الغربة والحنين بالحروب الدائرة بين المسلمين والأسبان على نحو ما نجد في قصيدة لابن الجنان يشتاق فيها الى مرسية التي ادى سقوطها الى نزوح الشاعر عنها فصار يستذكر ايام الصبا والشباب ، والغربة النفسية تركت اثاراً عميقة الأغوار في نفس الشاعر[2].

ولم أنتفع بالعيش بعد فراقكم وإن كنت قد هنيت بالعيشة الرغد
فما ساغ شرب في البعاد ولا حلا ولو أنه التسليم يمزج بالشهد
فداءٌ لأيام التداني وطيبها زماني ، وإن قل الزمان ، لما أفدى
فقدت بفقديها التأنس كله وأعجب شيء إن سلمت من الفقد
فقل كيف صبري واحتمالي ودونما أقاسيه ما هد القوى أيما هَدّ

ويحفظ ديوان الشعر الأندلسي صوراً أخرى من دواعي التغرب واسباباً مختلفة ـ فضلاً عما تقدم ـ فقد يرحل الشاعر حين تضيق به سبل العيش فمن ذلك ما تصوره لنا ابيات قاضي المرية ابي الحسن مختار بن عبد الرحمن الرعيني (ت ٤٣٥ هـ) حين يزمع على العودة الى موطنه فيخاطب بني حمود في قرطبة ويقول[3]:

الا فأذنوا لي بالسراح فانها نهاية مطلوبي وفيه عذاب
فاني قد خلفت في أفق موطني فراخاً هو اهم ليس عنه مناب

---

(١) القلائد ١١٤ ، الحلة السيراء ٢ / ١٦٨ الخريدة ٢ / ٢٧٨
(٢) ق ١١
(٣) المغرب ٢ / ٢٠٧

ولبعض الشعراء أبيات خاطب فيها الملك الكامل بعدرحيله الى بيت الله الحرام واشتياقه الى وطنه فيقول[1].

لأن صدني البحر عن موطني ... وعيني بأشواقها زاهرة
فقد زخرف لي مكة ... بأنوار كعبته الزاهرة

واذا كنا قد وقفنا في الصفحات السابقة على دواعي الغربة والحنين فلنا ان نتوقف عند ابرز ملامح هذا الاتجاه وابرز معانيه . ونستطيع ان نشخص اتجاهين مختلفين في هذا الموضوع يمثلان طبيعة الحياة في الأندلس منذ الفتح حتى جلاء المسلمين عنها .

فالمرحلة الاولى تمثل لنا شعراء في وطنهم الجديد بالاندلس حيث اقترنت ذكرياتهم بمدنهم وأوطانهم التي غادروها بعد فتح الأندلس فكانت معاني الغربة والحنين الى بلاد المشرق . وتمثل لنا أشعار عبد الرحمن الداخل وشعراء عصره وقد تقدمت ابياته في موضعها . هذا الاتجاه .

اما الاتجاه الثاني فيمثل الشاعر الأندلسي الذي نشأ فيها وترعرع على أرضها فتعلق قلبه بحبها ثم دعته ظروف قاهرة ودواع تقدم الحديث فيها سالفاً . الى الرحلة عنها وتأتي هذه الرحلة في ضربين يتمثل اولهما في رحلة الشاعر الى بلاد المشرق والثاني فتمثله رحلة الشاعر من مدينته الى مدن اندلسية أخرى .

ولعل من اقدم النصوص الشعرية الابيات التي نظمها عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨) حيث كتب بها الى اهله سنة ٢١٠ هـ وفيها يقول :[2]

أحب بلاد الغرب والغرب موطني ... ألاكل غربي إلى حبيب
وياكبدأ عادت زماناً كأنما ... يلدغها بالكاويات طبيب
بليت وأبلاني اغترابي ونأيه ... وطول مقامي بالحجاز أجوب
فما الداء إلا أن تكون بغربةٍ ... وحسبك داء أن يقال غريب
فياليت شعري هل أبيتن ليلةً ... بأكناف نهر الثلج حين يصوب
وحولي أصحابي وبنتي وأمها ... ومعشر أهلي والرؤوف مجيب

وابيات ابن الفرضي التي تقدمت بنا سالفاً هي الأخرى تمثل هذا الاتجاه .

---

(١) النفح ٤ / ٢٢٦
(٢) الاحاطة ٢ / ٥٥١

وقصائد الشعراء الدخلاء على الأندلس امثال ابن حمديس الصقلي وابن شرف القيرواني وابو الحسن الحصري القيرواني وامثالهم تحمل هذا الطابع ولكن بصورة معكوسة نجدها مضمخة بمعاني الغربة والشوق والحنين الى اوطانهم بعد ان حل بها ما حل بمدن الأندلس فيما بعد فقد غادر ابن شرف القيروان بعد الفتنة التي حلت بها ولم يزل يحتفظ بذكرياته العبقة عنها وقلبه يصطلي بنيران الصبابة على نحو ما يقول :[1]

ياقـــيروان وددت أنـــي طائر فأراك رؤية باحـــث مـــتأمـــل
آهاً وأية آهة تـــشـــفـــي جوى قلب بنيران الصبابة مصطلي
أبدت مفاتيح الخطوب عجائباً كانت كوامن تحت غيب مقفل
زعموا ابن آوى فيك يعوى والصدى بذراك يصرخ كالحزين المثكل

ويقول من اخرى يصف فيها آخر الصور التي شخصت في مخيلته قبل رحيله وهي طويلة قطف ابن بسام عيونها :[2]

آه لـــلـــقـــيروان أنة شـــجوٍ عن فؤادٍ بجاحم الحزن يصلى
حين عادت به الديار قبوراً بل أقول الديار منهن أخلى
بعد يومٍ كأنما حُشِر الخل ق حـــفاة بـــه عواري رجـــلـــي
ولـهـم زحـمةٌ هـنالـك تـحـكـي زحـمة الـحـشر والـصـحائـف تُـتلى
وعـجـيـج وضـجةٌ كـضـجـيـج ال خـلـقِ يـبـكون والـسرائر تُـبْـلـي
ليت شعري هل عودةٌ لي في الغيـ ـب إلى ما أطال شجوي أم لا ؟

وفي ديوان ابن حمديس قصائد كثيرة يتشوق فيها الى صقلية مسقط رأسه ومرتع شبابه وكانت تلك القصائد مسلاة له عن النكبات التي كان يسمع اخبارها وهو في الاندلس ويطيب بها قروح نفسه والآمها :[3]

ذكرتُ صـــقـــلـــيةُ والأسى يُـهـيِّـجُ لـلـنـفـس تذكارها
ومـنـزلةً لـلـتـصابـي خـلـت وكان بـنـو الـظرف عمارها
فإن كنتُ أخرجت من منةٍ فإنـــي أحدث أخـــبارها
ولولا مـلوحةُ مـساء الـبـكا حـسـبـت دموعـي أنـهارها

---

(١) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٢٣
(٢) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٢٧ ـ ٢٢٩
(٣) ديوانه ق ١١٠

ويتمنى لو يتاح له ان يلقى نظرة على وطنه ويمتع ناظريه بصعيده وجمال ربوعه ولكن خضوعه للعدو وسيطرة النورمانيين عليه يحول دون تحقيق ذلك الأمل الى الأبد :[1]

ولو ان أرضي حرة لأتيتها بعزم يعد السير ضربة لازب
ولكن ارضي كيف لي بفكاكها من الأسر في ايدي العلوج الغواصب
أمثلها في خاطري كل ساعة وأمري لها مطر الدموع السواكب

وتبقى صورة الوطن لاتبارح ذاكرته حيثما ذهب واينما اتجه ويجد فيما يحيط به مايذكره بهذا الوطن فيخاطب اللينوفر فيقول :[2]

هو ابن بلادي كاغترابي اغترابه كلانا عن الاوطان ازعجه الدهر

وفي البيت مافيه من عمق الأثر وبعد الغور لشعور الشاعر بالغربة والحنين على الرغم مما رآه الدكتور احسان عباس من ان وقفته عند معنى الغربة امام اللينوفر ليست الاوقفة عابرة .[3]

واما الضرب الثاني الذي اشرنا اليه فيتجلى في شعر عدد كبير من شعراء الأندلس . فأبيات ابن زيدون القافية التي عرضنا لها في موضع سابق يوجهها من الزهراء الى ولادة وهي بقرطبة . فيها نبرة الحزن والتذكر . وقصيدته الحائية التي مطلعها :[4]

خليلي لافطر يدوم ولا أضحى فما حال من أمسى مشوقاً كما اضحى

يوجهها من بطليوس الى قرطبة كذلك . ومن بطليوس كذلك يشتاق الى وطنه بعد ان ينتقل بين بلنسية وطرطوشة والحنين يمزق قلبه شغفاً بوطنه وتشوقاً الى هواه القديم :

يادمع صُب ما شئت أن تصوبا
قد ملأ الشوق الحشا ندوبا
إذا أتيت الوطن الحبيبا

---

(١) ديوانه ق ٢٧
(٢) نفسه ق ١١٣
(٣) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ١٩٩
(٤) الديوان : ١٥٨ ـ ١٦١

فحيي منه ما رأى الجنوبا
حيث ألفت الرشأ الربيبا

ولابن عمار بعد ان نفاه المعتضد الى سرقسطة قصيدة طويلة فيها معاني الغربة والشوق الى ذكرياته في اشبيلية وشلب[1]:

الا قاتل الله الجياد فانها نأت بي عن أرض العلى والمكارم
اشلب ولا تنساب عبرة متفق وحمص ولا تعتاد زفرة نادم
كساها الحيا برد الشباب فانها بلاد بها عق الشباب تمائمي
ذكرت بها عهد الصبا فكأنما قدحت بنار الشوق بين الحيازم

وتجلت ظاهرة الترحل بين مدن الأندلس وما اقترنت به من ذكريات تحفل بها قرائح الشعراء في عصر الطرائف فلا نكاد نرى الشاعر يستقر به المقام في مملكة من ممالك الطوائف ويطيب له المثوى مزدلفاً لأحد ملوكها يخرج ثانية الى بلاط ملك آخر ويستشعر معاني الضياع والغربة منذ ابتعاده عن مدينته الأم على نحو ما نجد عند ابن اللبانة الاندلسي في قوله:[2]

رماني الدهر في كل النواحي فأثبت في مقاتلي النبالا
وصيرني غريباً في مكان به الغرباء تكسب والعيالا

وهو يستشعر تكالب الهموم وتزاحم الاحزان عليه من كل جانب فيقول:[3]

قد طال بي أقطع البيداء متصلاً وليس يسفر عن وجه المنى سفر
كأنما الأرض عني غير راضية فليس لي وطن فيها ولا وطر
ان الهموم مع الأعمار ماشية لا ينقضي الهم حتى ينقضي العمر

ولم يختلف ابن بقى في كثير عن ابن اللبانة فيتجول في مدن الأندلس. ويضيق ذرعاً بها:[4]

قالوا تغربت عن اقطار اندلس ومن يقيم على هون وإقلالِ

---

(١) محمد بن عمار ص ٢١٠
(٢) شعر ابن اللبانة الداني ق ٦٢.
(٣) نفسه ق ٢٥.
(٤) المورد ٧ / ١ / ١٤٢ ق ٣٤.

وقد اضطرب الأمر بابن السيد البطليوس كذلك على نحو ما نجده في مجموع اشعاره [١].

واما معاني شعر الغربة والحنين فقد اشار اليها الدكتور عبد العزيز عتيق ومنها الشوق الى الاوطان وتصوير تجاربهم الذاتية في ديار الغربة وملاعب الصبا وتذكر ايامهم وعهودهم السعيدة وكان بعضهم يمدح الاغتراب واكثرهم يذمه ثم يلاحظ ان الشعراء كانوا يمزجون بين الحنين والطبيعة في صورهم الشعرية وتفضيل البقاء في الوطن مع التشظف والفاقة على الاغتراب مع الغنى والسعة ، وتصوير مالقيه بعضهم من عدم الترحيب والتقدير وبالتالي الندم على مجازفته بالاغتراب .[٢].

ونجد هذا الموضوع يتصل بأكثر موضوعات الشعر الأخرى وهو حيناً يتصل بشعر الوصف حينما يصف الشاعر الطبيعة . كما نجده في شعر ابن خفاجة الأندلسي في أبياته التي تقدمت بنا سالفاً . وفي قصيدته العينية التي يقول فيها :[٣]

أجبت وقد نادى الغرام فأسمعا ... عشية غناني الحمامُ فرجّعا
فقلت ولي دمعٌ ترقرق فانهمى ... يسيل وصبرٌ قد وهى فتضعضعا
ألاهل الى ارض الجزيرة أوبةٌ ... فأسكن أنفاساً وأهدأ مضجعاً
واغدو بواديها وقد نضح الندى ... معاطف هاتيك الرُّبى ثم اقشعا
أغازلُ فيها للغزالة سِنَّةً ... تحط الصَّبا عنها من الغيم برقعا
وبات سقيط الطلّ يضرب سرحةً ... ترف بواديها وينضح أجرعا
أقلب طرفي في السماء لعلّني ... أشيم سنا برقٍ هناك تطلعا

« فالطبيعة الأندلسية مصدر الهام الشعراء والفيض الزاخر الذي يستمدون منه افكارهم وموضوعاتهم فرؤية الغراب عندهم او سماع نعيقه يعني الاستعداد للرحيل او الغربة والتمتع بترجيع صوت الحمامة يثير فيهم الوجد والحنين . والنخلة رمز يمثل المشرق وهو مايحرص عليه الأندلسي ويهتم بها لأنها غريبة تحاكي غربته والزهرة نبتة جميلة تتجسد فيها صور محبوبته . والريح والرعد والبرق تذكي فيه جذوة الشوق والحنين »[٤]

---

(١) ابن السيد البطليوس ، مجلة المورد ٦ / ١ / ١٩٧٧ .
(٢) الأدب العربي في الأندلس ٢٧٤ .
(٣) ديوانه ق ٧٨
(٤) الغربة والحنين في الشعر العربي الاندلسي ٢٤٥ .

ومما يندرج في هذا الاتجاه ، قصيدة من عيون الشعر الأندلسي للرصافي البلنسي (ت ٥٧٢ هـ) الشاعر العفيف ، وهو بابياته يخلد ذكر مدينة بلنسية الجميلة اروع تخليد حين نعتها بأروع النعوت فيقول :[١]

خليلي ماللبيد قد عبقت نشراً ... ومالرُّوس الرُّكب قد رنحت سُكرا
خليلي عوجا بي عليها فانَّه ... حديث كبرد الماء في الكبد الحرَّى
بجسر معانٍ والرُّصافة إنَّه ... على القطر أن يسقى الرُّصافة والجسرا
بلادي التي ريشت قويديمتي بها ... فريخاً وآوتني قرارتها وكرا
مبادىء لين العيش في رِيَق الصبا ... أبى الله أن أنسى لها أبداً ذكرا
بلنسية تلك الزبرجدة التي ... تسيل عاليها كل لؤلؤة نهرا
معاهد قد ولت إذا ماعتبرتها ... وجدت الذي يحلو من العيش قد مرَّا

ويلاحظ ان نفس الغربة ضعيف ، واما سمة الوصف لطبيعتها فقد كانت أظهر وأقوى . كذلك يقترن موضوعنا بشعر رثاء المدن والممالك على نحو ما ذكرنا في دواعيه وهو يأتي عند ابن زيدون مقترناً بشعر الغزل والنسيب . كما يتصل بشعر الاخويات والمراجعات .

واما شعراء هذا الاتجاه فكثر ولايكاد ديوان شعراء الأندلس يخلو من شعر هذا الاتجاه ولكننا نشير الى شاعر اكثر من ذكر هذا المعنى فضلاً عن الشعراء الذين تعرضت دراستنا لهم ذلكم هو ابو عامر بن الاصيلي الذي ترجم له ابن بسام في ذخيرته وأورد له اشعاراً في هذا الاتجاه منها قوله[٢]:

على سرقسطة أبكى دماً ... وأمواهها العذبة المحييه
وقوم كرامٍ فوا حسرةً ... على الجمع منهم أو التثنيه
وأصبحت في بلدةً أهلها ... سباع لأهل النهى مؤذيه
تعوضت منها بأرض أرى ... أفاعيل أربابها مليه

وكان من اهل سرقسطة فاضطر الى الضرب في آفاق مدن الأندلس . وقد تكسب بالشعر زمناً ، لكنه لم يطب له المقام في مدن اندلسية كثيرة . فدعاه ذلك الى

---

(١) ديوانه ق ٢١ ص ٦٨ ـ ٧٠
(٢) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٥٩

هجائها ، لامر نجهله ... مما يجعل شعوره بالغربة والحنين الى الوطن ذا أبعاد خاصة ، فقد جعل الناس اوغاداً تعتمر دوراً ، وشكا الفاقه .[1]

الى ايـــن الـــفرار ولا فرار ... ومـــن لـــي بالـــقرار ولا قرار
ارى الأوغاذ يـــعـــتـــمرون دوراً ... ومالـــــــــي في بلاد الله دار
بلاد عريـــت مـــن كـــل خـــيرٍ ... فـمـلـبـس أهـلـها مـقـت وعار
غـلـطـت فزرتـها فرأيـت قوماً ... مـــنازلـــهـــم وإن عـــمرت قـــفار

وقد بلغت به الرحلة اشبونة ايام اقامة ابن بسام بها فالتقى به وانعقد الود بينهما ونلقاه في ثالثة ، بعد أن قصد قلمرية ، وكان اذفونش قد أخضعها لسلطانه[2]

قـلـقـت وحـق بأن يـقـلـقا ... مـــصون غدا غرضاً لـلـشـــقا
وردت قـــلـــمريةُ طامـــعاً ... فـــلـــم ألـــف برأ ولا مرفـــقاً
إذا الـــــــشوق مر على خاطري ... شرقـــــتُ وحـــــق بأن أشرقا
أأحـــبابـــنا هـــل لـــنا رجـــعةٌ ... وهـــل لـــي بـــكـــم أبداً مـلـتـقى

---

(٢) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٦١
(٢) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٦٠